الفصل الرابع والعشرون

حكمة القلب

قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]، وبيَّن الله عَزَّوَجَلَّ منَّته على نبيه داود صلوات الله وسلامه عليه فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وبين سبحانه منته على نبيه عيسى صلوات الله وسلامه عليه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: ١١٠]، وكذلك بين ربنا عَزَّوَجَلَّ منته على سيد الخلق وإمام المتقين محمد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، الحكمة ضرورة شرعية ولازمة دعوية وهبة ربانية، وهي مفتاح القلوب وسبيل النجاح والسداد في كل عمل، لأنها تعصم من السفه وتحفظ من الطيش وتنجي من العجلة، وكل من فقد الحكمة في قوله وعمله فقد حكم على نفسه بالفشل وعلى عمله بالضياع والفساد، ولن تثبت دعوة ولن يستقيم داعية إلا بالحكمة، وليست الحكمة قولًا حسنًا فحسب، بل هي قول وعمل وسلوك ومعاملة، ومن تحلى بها اجتذب القلوب إليه واستمال الأرواح والنفوس وضمن لنفسه أعظم مقوِّم من مقومات السداد والثبات في العلم والعمل والعبادة والدعوة والبلاغ.

تعريف الحكمة

الحكمة: هي الإصابة والسداد في القول والعمل، وقيل: هي قول ما ينبغي وفعل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي.

قال الراغب الأصفهاني في المفردات: الحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل[(١)].

---

(١) «المفردات في غريب القرآن» ص [١٢٧]

ويجمع معنى الحكمة أن يقال: هي الإصابة في الأقوال والأعمال ووضع كل شيءٍ في موضعه[١].

والحكمة ليست لينًا وصمتًا بل إنها تعني استعمال الشدة في موطن الشدة واللين في موطن اللين ورعاية حال المخاطب وطبيعته، إن بعض المواقف لا يكون علاجها إلا شدة رادعة وغضبًا زاجرًا واستعمال اللين في تلك المواقف يفسد ويدل على سفاهة وخفة في العقل، ومن شواهد استعمال الشدة قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن اللتبية لما أتاه بمال فقال: هذا لكم وهذا أهدي إليَّ فقال له رسول الله: «**هَلَّا جلست في بيت أبيك أو بيت أمك حتى تأتيك هديتك**»[٢]، ومن ذلك قول الصديق أبو بكر لعروة بن مسعود الثقفي في صلح الحديبية: «**اذهب فامصص بظر اللات**»[٣]، وفي هذا الحديث الأخير جواز النطق بما يستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك والمقصود أن الحكمة تعني أن تستعمل لكل موقف ما يناسبه.

أركان الحكمة

للحكمة أركان تقوم عليها وأصول تنبني عليها، ولن تكون حكمة إلا إذا توفرت فيها تلك الأركان وهذه الأركان هي: العلم، والحلم، والأناة.

أولها- العلم:

العلم ما قام به الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمرء بدون علم متخبط في الضلال والسفه والانحراف والعمى، ومثل هذا لا يكون حكيمًا، ولهذا كان لابد من العلم قبل القول والعمل؛ لأن من قال بغير علم أخطأ وزل، ومن عمل

---

(١) «الحكمة في الدعوة إلى الله» ص [٢٧] ط وقفية.

(٢) رواه البخاري برقم [٦٩٧٩]، ومسلم برقم [١٨٣٢].

(٣) رواه البخاري برقم [٢٧٣١]، **والبظر**: قطعة تبقى بعد الختان في فرج المرأة، **واللات**: صنم كان يعبده المشركون.

بغير علم وقع في البدع والضلال بل والشركيات، قال تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩]، العلم هو الذي يجعل العبد يميز بين الحق والباطل والسنة والبدعة والراجح والمرجوح والفاضل والمفضول وما حقه التقديم وما حقه التأخير.

قال سهل بن عبد الله: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء[(١)].

قال الحسن البصري: العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح فاطلبوا العلم طلبًا لا تضروا بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا تضروا بالعلم؛ فإن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو طلبوا العلم لم يدلهم على ما فعلوا[(٢)]، قلت: ويقصد بذلك الخوارج وهذا بيان أن العلم سلامة ونجاة من الوقوع في البدع.

ثانيها- الحلم:

والحلم هو العقل والسكون عند الغضب ربط النفس عند حصول مكروه يغضب المرء أو يؤذيه، والحليم هو الذي لا يستخفه شيءٌ من عصيان العباد ولا يستفزُّه الغضب عليهم لأنه جعل لكل شيءٍ مقدارًا فهو منتهٍ إليه[(٣)]، والحلم صفة يحبها الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأشج عبد القيس: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**»[(٤)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٨٦) ط التوفيقية.

(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٢).

(٣) «النهاية» لابن الأثير (١/ ٤٣٤) وليعلم أن هذا الفصل أخذت أكثر مادته من كتاب «الحكمة في الدعوة إلى الله» للشيخ سعيد القطحاني حفظه الله.

(٤) رواه مسلم برقم [١٧].

والحلم يحتاج إلى مجاهدة النفس كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»(١)، ومما يدفع الغضب عن النفس، ويحقق الحلم فيها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ والوضوء وتغيير الحالة التي عليها الغضبان بالجلوس أو الخروج أو غير ذلك، واستحضار ما ورد في فضل كظم الغيظ من الثواب.

ثالثها- الأناة:

وهي التثبيت والتبيُّن في الأمور وعدم العجلة وهي التصرف الحكيم بين العجلة والتباطؤ، ولقد ذم الإسلام الاستعجال ونهى عنه وكذلك ذم التباطؤ والكسل، ونهى عنه، قال الله تعالى لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، فأمر سبحانه نبيه بعدم العجلة ومسابقة الملك في قراءته، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره، وأمر سبحانه عباده المؤمنين بالتأني في الأمور والتثبت فيها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

مواقف حكيمة

أولًا- سيد الحكماء:

هذا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أنزل الله عليه الكتاب والحكمة وعاش بالحكمة وقضى بها وعَلَّمَهَا وربَّى عليها أصحابه، ولا زالت مواقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باقية خالدة يتربى بها أبناء الأمة وبها يعملون، ومن ذلك ما فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الطفيل بن عمرو الدوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقد أسلم قبل الهجرة ثم رجع إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فبدأ بأهل بيته فأسلم أبوه وزوجته، ثم دعا قومه إلى الله عَزَّوَجَلَّ فأبوا عليه وعصوا وأبطأوا عليه فجاء

(١) رواه البخاري برقم [٦١١٤]، ومسلم برقم [٢٦٠٨].

الطفيل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر له أن دوسًا هلكت وكفرت وعصت وأبت فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء الطفيل بن عمرو الدوسي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إن دوسًا قد عصت وأبت فادع الله عليهم فاستقبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القبلة ورفع يديه فقال الناس: هلكوا فقال: «**اللهم اهد دوسًا وائت بهم، اللهم اهد دوسًا وائت بهم**»(١)، وهذا يدل على حكمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحلمه، فقد رجع الطفيل إلى قومه ورفق بهم فأسلم على يديه خلق كثير، ثم قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو بخيبر فدخل المدينة بثمانين أو تسعين بيتًا من دوس، ثم لحقوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخيبر فأسهم لهم مع المسلمين(٢).

ومن ذلك موقفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع معاوية بن الحكم السلمي، فعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم فقلت: واثكل أماه ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون أيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت، فلما صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبأبي هو وأمي ما رأيت مُعَلِّمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**»(٣).

ومن ذلك موقفه من المرأة المخزومية التي سرقت فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعدل البشر في جميع أموره وأحكامه، فقد قطع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدها ولم يُحابِ في ذلك أحدًا ولم يلتفت إلى شفاعة أسامه بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بل أقام عليها الحد برغم أنها كانت شريفة النسب، فعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة الفتح فقالوا: من يكلم فيها

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٣٩٢]، ومسلم برقم [٢٥٢٤].

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٦)، «الإصابة» لابن حجر (٢/ ٢٢٥) ط دار صادر.

(٣) رواه مسلم برقم [٥٣٧].

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتى بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكَلَّمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟! فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فخطب فأثنى على الله بما هو أهله، فقال: «**أما بعد، ايها الناس، إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني فأرفع حاجتها إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

ومن ذلك موقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع رأس المنافقين عبد الله بن سلول ذاك الذي آذى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ودَبَّر المكائد لحرب الدعوة، وصدَّ الناس عن سبيل الله وهذا الماكر حريٌّ بأن يقتل، وجدير بأن يذبح تخلصًا من شره ومكره، ولكن ظهرت حكمة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إخماد نار الفتنة وقطع دابر الشر بفضل الله، ثم بصبره على هذا المنافق الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر، لقد تحمله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحسن إليه وقابل مواقفه المخزية بالعفو لأن الرجل له أعوان ويخشى من شرهم المخزية بالعفو لأن الرجل له أعوان ويخشى من شرهم على الدعوة الإسلامية ولأن الرجل يظهر الإسلام ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق قال: «**دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»[(٢)]، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو قتله في هذا الآن لكان ذلك منفرًا للناس عن الدخول في الإسلام لأنهم يرون أن ذلك الرجل مسلم ومن ثم سيقول الناس: إن محمدًا يقتل المسلمين وعند ذلك تظهر المفاسد وتتعطل المصالح، فما أعظم هذه الحكمة النبوية!! وما أحوجنا في هذه الأيام إلى التعلم منها والتزود من دروسها التربوية العظيمة المباركة.

(١) رواه البخاري مختصرًا برقم [٣٤٧٥]، ومسلم بهذا اللفظ برقم [١٦٨٨].
(٢) رواه البخاري برقم [٤٩٠٥]، ومسلم برقم [٢٥٨٤].

من حكمة الصحابة

وفي مدرسة النبوة الحكيمة تخرج ذلكم الجيل الذي استمد حكمة وعلمًا وفهمًا ونورًا من أعظم مربٍّ حكيم عرفته الدنيا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا صدِّيق الأمة الذي فاضت حياته بالحكمة وشهدت مواقفه بسداده وحكمته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن تلك المواقف المشهودة المشهورة إنفاذ جيش أسامة الذي أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل وفاته بإنفاذه. لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظم الخطب واشتد الحال وظهر النفاق بالمدينة وارتدت أحياء من العرب حول المدينة وامتنع آخرون من دفع الزكاة، وعندما وقعت هذه الأمور أشار كثير من الناس على أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألا ينفذ جيش أسامة لاحتياجه إليه فيما هو أهم وكان من جملة من أشار بذلك عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فامتنع الصديق عن ذلك وأبى أشد الإباء إلا أن ينفذ جيش أسامة، وقال كلمته العظيمة الحكيمة: والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة، وأمر الحرس أن يكونوا حول المدينة.

ثم إن بعض الناس أشار أن يولي أمر الجيش رجلًا أقدم سنًا من أسامة، فغضب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك؛ لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي أمَّر أسامة على هذا الجيش، ولا يريد أبو بكر أن يغير شيئًا فعله رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يودع أسامة وجيشه وأبو بكر يسير على قدميه وأسامة راكب فقال له أسامة: يا خليفة رسول الله إما أن تركب وإما أن أنزل فقال أبو بكر: والله لستُ براكب ولستَ بنازل، واستأذن أبو بكر من أسامة لعمر بن الخطاب فقد كان عمر ضمن الجنود في جيش أسامة فأذن أسامة لعمر.

وكان خروج أسامة إلى الروم بأرض الشام في ذلك الوقت من أكبر المصالح، فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم وأخذهم الخوف والفزع وقالوا: ما خرج هؤلاء القوم إلا وبهم منعة شديدة وسنتركهم حتى يلقوا الروم، فلقوا

الروم فهزموهم وقتلوهم وبقوا أربعين يومًا وقيل سبعين يومًا ثم أتوا سالمين غانمين، وعندما رجعوا جهز أبو بكر مع الجيش لقتال أهل الردة ومانعي الزكاة[(١)].

ومن مواقفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذلك موقفه يوم وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مشهور وقد سبقت الإشارة إليه، ومن مواقفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إصراره على قتال مانعي الزكاة والمرتدين، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستخلف أبو بكر بعده وكفر من كفر من العرب قال عمر بن الخطاب لأبي بكر: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله**»؟! فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب: فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عَزَّوَجَلَّ قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق[(٢)]، وهذا الموقف الحكيم أول دليل على شجاعة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وتقدمه في العلم على غيره؛ فإنه ثبت للقتال في هذا الموطن العظيم وأعز الله به الإسلام والمسلمين وخذل به أعداء الله وأعداء الدين، ولهذا لم ينقص الدين في حياته كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن مواقف الفاروق عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مبادرته إلى مبايعة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وحسم الخلاف الذي كاد أن يحتدم في السقيفة، فبعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، فقالوا: منا أمير ومنكم أمير، فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح، فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر وكان عمر يقول: والله ما أردت بذلك إلا أني قد هيأت كلامًا قد أعجبني خشيت ألا يبلغه أبو بكر، ثم تكلم أبو بكر

---

(١) ينظر في ذلك صحيح البخاري حديث رقم [١٤٠٠]، «وفتح الباري» لابن حجر (٨/ ١٥٢) و«تاريخ الطبري» (٢/ ٢٤٦) ط دار الكتب العلمية و«البداية والنهاية» لابن كثير (٦/ ٣٠٤) ط مكتبة المعارف.

(٢) رواه البخاري برقم [٦٩٢٤]، ومسلم برقم [٢٠].

فتكلم أبلغ الناس فقال في كلامه: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير، فقال أبو بكر: لا ولكنا الأمراء وأنتم الوزراء، إن قريشًا هم أوسط العرب دارًا وأعربهم أحسابًا، فبايعوا عمر أو وابا عبيدة فقال عمر: بل نبايعك أنت، فأنت سيدنا وخيرنا، وأحبنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)]، عندما خاف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يبدأ بالبيعة لأحد الأنصار فتحدث الفتنة العظيمة لأنه ليس من اليسير أن يبايع أحد بعد البدء بالبيعة لأحد الأنصار فأسرع عمر بالبيعة إخمادًا للفتنة، وقال لأبي بكر: ابسط يدك، فبسط يده فبايعه وبايعه المهاجرون ثم الأنصار.

ومن مواقفه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه عندما مرَّ بالجابية على طريق إيلياء وجلس عندهم قيل له: أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل فلو لبست شيئًا غير هذا -يعنون قميصه المرقع- وركبت برذونًا لكان ذلك أعظم في أعين الروم فقال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلًا، ثم سار عمر من الجابية إلى بيت المقدس وقد تعبت دابته فأتوه ببرذون فجعل يهملج به فقال لمن معه: احبسوا احبسوا فنزل عنه وضرب وجهه وقال: لا علَّم الله من علمك، هذا من الخيلاء، ما كنت أظن الناس يركبون الشياطين، هاتوا جملي ثم نزل وركب الجمل، ثم لم يركب برذونًا قبله ولا بعده[(٢)].

ولما قدم الشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره ونزع خفيه وأمسكها بيده وخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة: لقد صنعت اليوم صنعًا عظيمًا عند أهل الأرض، صنعت كذا وكذا فصك عمر في صدره وقال: أوه، لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري حديث رقم [٣٦٦٧].

(٢) «البداية والنهاية» (٧/ ٥٧) ص [٦٠-١٣٥].

(٣) المصدر السابق (٧/ ٦٠).

وهذا هو الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سبط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلح الله به وبحكمته بين فئتين عظيمتين من المسلمين، ويحقن الله بهذا الموقف كثيرًا من الدماء المسلمة. فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر -والحسن بن علي إلى جنبه- وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»(١).

وقد تحقق ما أخبر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه عندما قُتل عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وبايع الناس الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وكانت كتائب الحسن كالجبال فأراد الحسن أن يحقن دماء المسلمين وأن يجمعهم على إمام واحد يلم شملهم فتنازل لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن الخلافة لالقلة ولا لذلة، ولا لعلة، بل لرغبته فيما عند الله وحقنًا لدماء الأمة، وسُمِّي هذا العام عام الجماعة لاجتماع الكلمة فيه على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

من المشاهد الحكيمة

كان من حكمة الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يرى الخروج على الأئمة العصاة من المسلمين، فقد جاء إليه جماعة يستفتونه في الخروج على الحجاج فقالوا: يا أبا سعيد، ما تقول في هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام وأخذ المال الحرام وفعل وفعل؟ فقال الحسن: أرى أن لا تقاتلوه فإنها إن تك عقوبة من الله فما أنتم برادِّي عقوبة الله بأسيافكم وإن يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، وخرجوا من عند الحسن ولم يوافقوه فخرجوا على الحجاج فقُتِلوا جميعًا، ولهذا كان الحسن يقول: لو أن الناس ابتلوا من قبل سلطانهم فصبروا ما لبثوا أن يفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه، فوالله ما جاءوا بيوم خير قط.

ومع ذلك كله فقد أراد الحجاج أن يقتل الحسن البصري مرارًا ولكن الله عصمه منه، بعث الحجاج إلى الحسن مرة وقد هم به فجاء الحسن إليه فلما قام بين يديه قال: يا

(١) رواه البخاري برقم [٢٥٠٥].

حجاج كم بينك وبين آدم من أب؟ قال: كثير قال: فأين هم؟ قال: ماتوا، فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن[١].

وهذا من حكمة الحسن في فتواه ودعوته إلى الله فإن الخروج على الأئمة المسلمين ولو كانوا فساقًا يسبب شرًا كثيرًا وفتنة عظيمة وإزهاقًا للأرواح وإراقة الدماء فقام الحسن بسدِّ الباب أمام هذه الفتنة.

وهذا عمر بن عبد العزيز عليه رحمة الله، من مواقفه الحكيمة أقبل سليمان بن عبد الملك إلى جيشه ومعه عمر بن عبد العزيز وفي ذلك المعسكر الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال، فقال سليمان: ما تقول يا عمر في هذا؟ فقال: أرى دنيا يأكل بعضها بعضًا وأنت المسئول عن ذلك كله، فلما اقتربا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائره بها ونعب نعبة فقال له سليمان: ما هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري فقال: ما ظنك أنه يقول؟ قال عمر كأنه يقول: من أين جاءت وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك؟ فقال عمر: أعجب ممن عرف الله فعصاه ومن عرف الشيطان فأطاعه، ومن عرف الدنيا فركن إليها.

وحج سليمان بن عبد الملك ومعه عمر بن عبد العزيز فأصابهم برق ورعد حتى كادت تنخلع قلوبهم، فنظر سليمان إلى عمر وهو يضحك فقال سليمان: يا أبا حفص، هل رأيت مثل الليلة قط أو سمعت بها؟ فقال: هذه المائة ألف درهم فتصدق بها فقال عمر: أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: وما هو قال: قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك فجلس سليمان فرد المظالم[٢].

وهذا الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ أتاه جماعة من الملاحدة وقالوا: ما الدلالة على وجود الخالق؟ فقال: دعوني فإن خاطري مشغول بأمر غريب قالوا: ما هو؟

---

(١) «البداية والنهاية» (٩/ ١٣٥)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ١٦٣-١٦٤) ط دار صادر.

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ١٩٥)، «سير اعلام النبلاء» (٥/ ١٢١).

قال بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة وهي ذاهبة وراجعة من غير أحدٍ يحركها ولا يقوم عليها فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إن هذا لا يصدقه عاقل فقال لهم: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف والحوادث من غير محدث وتتحرك هذه المتحركات بغير محرك؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام.

ومن المواقف العظيمة في الحكمة للإمام مالك بن أنس الأصبحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه جاءه رجل وقال: يا أبا عبد الله، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيءٍ ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرُّحَضَاء، ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج.

ومن ذلك أنه كتب إليه بعض العُبَّاد يحضه على الانفراد والعزلة عن الناس ويحضه على العمل فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح لي فيه وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر[(١)].

وهذا موقف حكيم لقاضي الأندلس منذر بن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث دخل يومًا على الناصر لدين الله وقد فرغ من بناء مدينة الزهراء وقصورها، حيث ساق إليها أنهارًا ونقب لها الجبل وأنشأها مدورة وعدة أبراجها ثلاثمائة برج، شرفاتها من حجر واحد وقسمها أثلاثًا، فالثلث المسند إلى الجبل قصوره، والثلث الثاني دور المماليك والخدم، والقسم الثالث بساتين تحت القصور، وعمل مجلسًا مشرفًا على البساتين صفح عمده بالذهب

(١) «السير» للذهبي (٨/ ١٠٠)، ص [١١٤].

ورصَّعه بالياقوت واللؤلؤ، وفرشه بمنقوش الرخام وصنع قدَّامه بحيرة مستديرة ملأها زئبقًا فكان النور ينعكس منه إلى المجلس، وقعد في هذه القبة المزخرفة بالذهب والبناء البديع الذي لم يسبق إليه، وجلس عنده جماعة من الأعيان رؤوس دولته وأمراؤه، فقال لهم: هل بلغكم أن أحدًا بنى مثل هذا البناء؟ فقال له الجماعة: لم نر ولم نسمع بمثله، وجعل جميع من حضر يثنون على ذلك البناء ويمدحونه وأثنوا وبالغوا، ومنذر بن سعيد ساكت مطرق لا يتكلم، فالتفت إليه الملك، فقال: ما تقول أنت يا أبا الحكم؟ فبكى القاضي وانحدرت دموعه على لحيته وقال: والله ما كنت أظن يا أمير المؤمنين أن الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ المهلك لصاحبه في الدنيا والآخرة، ولا أنك تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك به على كثير من الناس حتى أنزلك منازل الكافرين والفاسقين، فقال له الخليفة: انظر ما تقول وكيف أنزلني منازل الكافرين؟ فقال: قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]، فنكس الناصر رأسه طويلًا وبكى ثم قال: جزاك الله عنا خيرًا وعن المسلمين، وأكثر في المسلمين مثلك، والذي قلت هو الحق ثم قام عن المجلس وأمر بنقض سقف القبة ونزع الذهب والجواهر[1].

ولما أصاب الناس قحط في بعض السنين أمر القاضي منذر بن سعيد بالبروز إلى الاستسقاء بالناس، فصام أيامًا وتأهب وقيل: إن عبد الرحمن الناصر هو الذي أمره بالاستسقاء للناس فلما جاءته الرسالة قال للرسول: كيف تركت الملك؟ فقال: تركته أخشع ما يكون وأكثره دعاء وتضرعًا ففرح منذر بن سعيد بذلك وأمر غلامه أن يحمل ما يقيهم من المطر وقال: سقيتم والله، إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء، ثم قال لغلامه: ناد في الناس بالصلاة، فجاء الناس إلى محل الاستسقاء ثم خرج القاضي

(١) «السير» للذهبي (٨/ ٢٦٧)، (١٦/ ١٧٧)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٢٨٨).

منذر راجلًا متخشعًا، ثم وصل المصلى وقام ليخطب والناس ينظرون إليه ويسمعون ما يقول، فلما رأى الحال بكى وافتتح خطبته، قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ثم أعادها مرارًا فضج الناس بالبكاء والنحيب والتوبة والإنابة وقال: استغفروا ربكم وتوبوا إليه وتقربوا بالأعمال الصالحة لديه، فجأروا بالدعاء والتضرع وخطب فأبلغ فلم ينفض القوم حتى نزل غيث عظيم[(١)].

ومما أورده ابن قدامة المقدسي في (مختصر منهاج القاصدين): روي أن أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب بئر ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم فقالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي.

ومرَّ فتى يجر ثوبه فهمَّ به أصحاب صلة بن أشيم أن يأخذوه بألسنتهم أخذًا شديدًا، فقال صلة: دعوني أكفكم أمره ثم قال: يا ابن أخي، إن لي إليك حاجة قال: ما هي؟ قال: أحب أن ترفع إزارك قال: نعم ونعمى عين، فرفع إزاره فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم فإنكم لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم[(٢)].

حاجتنا إلى الحكمة

الحكمة من أعظم السبل للتوفيق والسداد، ومن أهم الأسباب للنجاح والتفوق والعز والارتقاء، ومن كان سعيه بغير حكمة فمآله إلى فشل ذريع، وتيهٍ شديد وما أحوج الأمة في هذه الآونة أفرادًا وجماعات إلى حكمة راشدة تعصم من الزلل، وتحفظ من الفساد والخلل، وتضمن للأمة خروجًا من وهدة الذل ونهوضًا من ورطة التبعية والانهزامية، إن الواقع يموج بالعداءات المتكررة والإساءات البالغة لأصول الإسلام وقواعده،

(١) «السير» للذهبي (٦/ ١٧٦)، و«البداية والنهاية» (١١/ ٢٨٩).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» [١٣٢] ط دار العقيدة.

ولابد من رد رادع يقلم أظافر الوحوش البشرية التي خربت قلوبها من تعظيم الله ودينه، ولكن هذا الرد لابد أن يكون منضبطًا بالحكمة، وأن يكون نابعًا من نظرة شرعية لأهل العلم الربانين، فليس العاقل من يعرف الخير من الشر، بل العاقل البصير من يعرف خير الخيرين ويعرف شر الشرين، إذ لا ينبغي أن تكون الانفعالات العامة خاضعة لحماس فوار أو ثورة غضب متأججة، وإنما لابد أن تنضبط بحكمة العلماء الذين هم أعلم الناس بدين الله وأغير الناس له وأحرص الناس عليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء: ٨٣]، قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي هذا دليل لقاعدة أدبية وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يولَّى من هو أهل لذلك ويجعل إلى أهله ولا يتقدم بين أيديهم فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ[1]، وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم وإذا أدبرت عرفها كل جاهل.

وكذلك فإن الحكمة سبيل لأمان البيوت المسلمة وأداة عظيمة للتربية والتقويم والإصلاح فإن هناك من المواقف ما لا يناسبه إلا شدة، ومواقف أخرى لا يناسبها إلا صمت وسكوت، ومواطن ثالثة لا يناسبها إلا رفق شديد، والحكيم العاقل من يستعمل لكل موقف ما يناسبه، وكم من خلل وقع في الحياة بسبب إهمال ذلك الأصل وتعطيله، إن الشدة الدائمة تولد البغض والكراهية وتبعث على التفلت، كما أنها تثمر الجبن والهلع في جانب تربية الأولاد، وتولد الانفجار الأسري والتفكك العائلي، كما أن جانب اللين الدائم يفسد ويولد الجرأة والاستخفاف والضياع، وكم من أب تجرع مرارة العقوق وتلظى بناره بسبب التدليل واللين حتى استصعب الإصلاح، فكلا الجانبين مفسد والحكمة بينهما وذلك باستعمال اللين في موطنه والشدة في موطنها.

---

(١) «تفسير السعدي» [١٩٠].

وعلى المستوى الدعوي فإن الدعوة تحيط بها الأخطار من اتجاهات متعددة ولابد أن يتولى قيادة أمرها حكيم مجرب على جانب كبير من الفقه والعلم، وإلا تورطت الدعوة في عراقيل تعوقها وركدت حركتها وتوقف سيرها وضعف تأثيرها والسبب قائد هلوع جزوع أو جاهل أهوج متسرع، والحكمة تكمن في ضمان سير الدعوة وتقدم العطاء الدعوي مع إزاحة العراقيل وتفادي المنزلقات مع التوكل والثقة والصبر واليقين

وقد قيل:

لا تكن صلبًا فتكسر ولا تكن لينًا فتعصر

وقيل:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

وهكذا الحال في كافة مجالات الحياة، لابد فيها من حكمة وتعقُّل وتبصُّر والموفق من وفقه الله.

السبيل إلى الحكمة

الحكمة فضل عظيم يختص الله بها من عباده من يشاء كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال تعالى عن نبيه داود صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، فإذا كانت الحكمة محض فضل من الله فلا تُطلب إلا منه، فمن أراد الحكمة فليكثر الدعاء وليُدِم عليه حتى يؤتيه الله إياها.

ومن سبل تحصيلها كذلك طلب العلم ومجالسة العلماء الربانين والسماع منهم وعنهم فإذا حصل العلم حصلت الحكمة، وأحكم الناس وأبصر الخلق بالحقائق هم

العلماء، ومن سار على دربهم نال بذلك بقدر ما حَصَّل، فاطلب العلم بجد واحرص عليه فإن الحكمة معه وبه، فاللهم يا ربنا علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا.

ومن سبل تحصيلها كذلك النظر في سير السلف الصالحين والوقوف على أخبارهم ومواقفهم الحكيمة النبيلة من مثل تلك المواقف التي تقدمت منذ قليل، فإن مداومة القراءة عن السلف ومعايشة المشاهد الإيمانية التي كانوا عليها تُثري القلب بالحكمة والحلم وتغرس فيه الاقتداء بهم، فاللهم يا ربنا آتنا الحكمة واجعلنا من أهلها.

❁ ❁ ❁

obeikandl.com